

نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين

بسم

و بحمد الرحمن زكي

١ - القاهرة في أيام الفاطميين

(٩٦٩ - ١١٧١)

بعد أن نجح الخليفة للزم لدين الله في دولته الإفريقية التي أسسها جسده أبو عبيد الله ، ومن حدودها إلى ساحل الأطلس ، عزم على فتح مصر ، وكان أبوه وجده قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى للزم الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما ، وكانت مصر في ذلك الحين عرضة للنزاة ، فقد عمت فيها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التي سببها انخفاض النيل والطاعون .

وكان للزم لدين الله ملما بحالة البلاد بمد أن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودي الذي هاجر من مصر .

طلب الخليفة للزم إلى قائده جوهر الصقلي أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملة لفتح مصر ، فحشد مائة ألف رجل مجهزين بالمدات والذواب وأرسل معهم للثون والعتاد وكل ما يحتاجه هذا الجيش الجرار . وبدأت الحملة مسيرها من ققيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير ٩٦٩) ، فوصلت إلى

الإسكندرية واستولى جوهر عليها . ثم واصل زحفه إلى الجزيرة فوُقت في يده في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو (١)) وعبر النيل بالقرب من منية الشلقان وهزم الجيش الذي أعمد للدفاع على الشاطئ الشرقي لنيل . وفي أعقاب ذلك دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر مدينة القسطاط عند منيب الشمس وعسكرت في السهل الرمل الواقع إلى الشمال ، وكان يحده هذا السهل من الشرق جبل اللقطن ومن الغرب الخليج (٢) الذي يصل بين شمال القسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة ، وينتهى عند القلزم على البحر الأحمر . وكان السهل المذكور خالياً من الباني إلا بضعة مبان ملحقة ببساتين كافور الإخشيدي ، ودبر فسيح اسمه دير العظام وكان يشغل مكان مسجد الأقمر حصن صغير يسمى قصر الشوك .

تأسيس القاهرة

وفي مساء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، اختلط جوهر موقع القصر الذي قرر أن يستقر فيه للتمتع تنفيذاً لأوامر سيده . وحينما أتى أعيان القسطاط في الصباح اتوا إلى انتهته وجدوا أن أساس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبني سوراً خارجياً من من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التي حدها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو ٧٠ فداناً بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمس وثلاثين فداناً للبساتين الكافورية ومثلها للميادين والباقي قدره مائتان فدان هو الذي وزع على الفرق العسكرية في نحو عشرين خطة بجانبه فصبه القاهرة (١) ، ونظراً لأن جوهر كان قد أسرع في حفر أساس القصر بالليل

(١) مذكر بعض المراجع هذا التاريخ ١١ شعبان عام ٣٥٨ هـ (أول يوليو ٩٦٩) .

(٢) ردم هذا الخليج في أو آخر القرن التاسع عشر ، ويسمى الشارع الآن شارع الخليج المصري .

(٣) المخطط التوفيقية لمل باشا مبارك ج ٢ ص ٨١ .

فحدثت فيه انحناءات غير معتدلة فلما شاهدها في الصباح لم يعجبه ، لكنه قال :
« قد خفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفي اليوم القى خط
جواهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيمية التي تآلف منها جيشه خطته
فأخذت زويلة الحطة المرفوعة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية
واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر^(١) وكان غرض جواهر
من إنشاء القاهرة أن تكون معقلا حصينا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط
ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن على مسكرات قوائمه وأنشأ من داخل السور
جامعا وقصراً واحتفر خندقاً من الجهة الشمالية لينع القتحام جيش القرامطة إلى
القاهرة ومصر من ورأها^(٢) أما القصر الذي بناه جواهر فقد أوضح ابن دقاق
للغرض الذي رما إليه جواهر ، فقال أنه بناء لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه
يعزل عن عامة الشعب . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المزية في أكثر
أجزائه بفضل للمعلومات التي أمدنا بها القرزي ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب
النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه . وقد كانت القاهرة تحدد من الشمال
بموقع باب النصر والحلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب
من موقعه الحالي المواجه للفسطاط ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب
المحروق المواجهين للمقطم ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سمادة اللؤلؤ أو المحاذي
لخليج أمير المؤمنين بعيداً عنه نحو ٣٠ متراً .

وقيل أنه لما فرغ جواهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، مضى للدينة
في أول الأمر للنصورية ثمنا بأحرم مدينة النصورية التي أنشأها خارج القيروان للنصور

(١) الخطط المرفوعة طبعة النيل ج ٤ - ص ١٧٩

(٢) الخطط المرفوعة طبعة النيل ج ٢ - ص ١٧٩

بأنه والد المزم واستمر هذا الاسم حتى قدم للمزم إلى مصر فطلق عليها القاهرة^(١) وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها^(٢). ومن الواضح كما أشارت «رايتاير» أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشئ المنصورية مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية لاقبروان أو بمثابة فرساي لباريس أو وندسور للندن .

ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكري من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زويلة والثاني باب الفتوح وقد أطلق هذان الأسماء على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية .

وفي يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٣ م) لما وصل للمزم إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل للفسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجا لمقدمه ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضروا جثثهم معه في توابيت . وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه بالأزهر وخطب خطبة العيد . وكانت الصلاة قد أقيمت

(١) كتاب اتماظ الحفاه بأخبار بلاط الخلفاء للمقرئى - بيت المقدس - ١٩٠٨ .

(٢) قيل في سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقم فيها الجند وأمرهم لاختيار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم إخشب بين كل قائمتين جعل فيها اجراس وقالوا للعمال إذا تحركت الاجراس فارموا بأيديكم من الطين والحجارة فوقوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق أن غرابا وقع على جبل من الجبال التي فيها الاجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فالتقوا ما بديابهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون « القاهرة في الطالع » ففى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة - المخطط المقرئية ج ٢ ص ٣٠٤ .

لأول مرة بالجامع الأزهر في يوم الجمعة لست خلون في رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢) (١) .

فكان القاهرة المدينة المسورة لم يقصد جوهر من إنشائها في بادئ الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل وضعا لتكون سكنا للخليفة وحرمة وجنده وخواصه ومقل قتال يتحصن به ويلتجىء إليه (٢) . فنشأت القاهرة مدينة خاصة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حينما بعد قيامها مدينة خليفية عسكرية تشتغل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح ، ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المزم وأسرته من المغرب ونزلوا في القصر الشرقي الكبير واتخذ الخليفة مصر موطنه . وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٦ رمضان ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٣) (٣) .

(١) ذكر المقرئ في المخطط (بولاق ج ٢ ص ٢٧٣) أن ذلك كان من يوم الجمعة لسبع خلون من رمضان وهو خطأ لأن يوم ٧ يوافق يوم السبت - كما جاء في التوقيعات الالهامية . وقد عني المؤرخون بذكر أول صلاة جمعة تقام في أية مدينة اسلامية منذ عهد الفتوح ، وحدث ذلك فعلا بالجامع الأزهر يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ الموافق يوم ٢١ يونيو ٩٧٢ .

(٢) المخطط المقرئية ، طبعه النيل - ج ٢ - ص ١٨٤

(٣) أن تصميم القاهرة الأصلي يوضح تأثير القائد جوهر والمزبما رباب في أفريقيا - الشماليه من التخطيط الروماني فإنه يمكن التشبيه بين مدينة تعجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود شارعين أساسيين للسكراد وماكسيموس والديكومانوس ماكسيموس اللذان يقسمان المدينة أحدهما من الشمال إلى الجنوب منتها إلى طرفي المواصلات للوجهين القبلي والبحري مارا بالميادين الوسطى التي بها قصر الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلا من المعبد واليسيوم والوديون الروماني . وأما الطريق الثانية فيقسم المدينة من الشرق إلى الغرب أى من باب الوزير وكان ذلك الطريق ينتهى إلى الجامع الأزهر . وليست القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار القديده المتعدده بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرنا قد اعيد تشييد حصونها ست مرات متوالية إلى أن تخلصت نهائيا منها .

ولم يكن لقاطن مصر أن يدخلوا « القاهرة » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه .

وبعد بضعة أعوام السمت المدينة الناشئة ونمت نموا كبيرا وبدأت القاهرة حياتها في ظل الخلفاء الفاطميين وتبوات مكاتبها العظيمة برونقها وبهائها ثم انصابت بمصر الفسفاط وصارتا تؤلفان معا أكبر المدن الإسلامية في المصور الوسطى .

أسوار القاهرة الفاطمية (١)

كانت المدن في أغلب أنحاء العالم في الزمن للماضى تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات الغزاة عليها . ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سوراً مميكا من اللبن وفتح فيه الأبواب الضخام .

وبعد مضي حوالي القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالي وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر أبو عييم معد أن الناس بنوا خارج السور بسبب الساع العمران ، لأسباب في الجهتين البحرية والقبليّة من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يميناً ويساراً ونفع فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتسكون عوضاً عنها .

(١) رجعتنا عند كتابة هذا الفصل إلى مذكرات للرحوم المؤرخ محمد بك رمزي

ولما زاد العمران بعد ذلك والسمت للدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ ٩٧٠ م وهو يومئذ وزيراً للخليفة العاضد عبدالله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين في بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوار للدينة القديمة التي كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة في غربيها إلى النيل (بسبب ما طرحه النهر من الأرض) وفي جنوبها إلى مصر القديمة ، واستبقى أبواب بدر الجمالي لأنها مبنية بالحجر أمثنت بناء وأروعه .

السور الأول :

لما تكلم القرزى في خطته على سور القاهرة (١) ذكر أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م ببناء السور الذي أنشأه من اللبن على مناخه الذي نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل في دائرة سور القصر بئر المظالم وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاة للمزورب في القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تمييز موقع السور وحدوده فإنه يستفاد مما ذكره للقرزى عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة القديمين وباب زويلة الحالي وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة ببلد الدين وعلى غير ذلك من اللباني التي حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالي — يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التي أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مباني القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور على جهاتها الأربع في المنطقة التي تحد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من رأس حارة الوسامة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحري ثم يسير

(١) المخطوط القرزى ج ١ ص ٣٧٧

إلى الغرب حتى يتقابل بإشـارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين متراً إلى شمال جامع الحاج محمود الخنو المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع في تلك النقطة باب القدس الذي كان بداخل باب النصر ومن هنالك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بإشـارع للمزدين الله (إشـارع باب الفتوح سابقاً) على رأس مدخل إشارع بين السيارج حيث كان يقع في تلك النقطة باب القوس الذي كان داخلاً في باب الفتوح ، ثم يمتد السور في مكان الوجهة البحرية للمباني الواقعة في إشارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشي ، وكان السور البحري لمدينة جوهر ينتهي عند تلك النقطة .

كان السور الغربي يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجهاً إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس إشارع أمير الجيوش الجواني حيث يقع باب القوس الذي كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب في مكان الوجهة الغربية للمباني الواقعة بإشـارع الشعراني البراني وإشارع بين السورين وإشارع بين النهدين إلى باب الخوخة على رأس إشارع قبو الزينة (وصوابه قبو الزينية) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمباني إشارع جامع البنات إلى أن يلتقي برأس إشارع الاستئناف الحالي حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوباً إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ متراً خنوب مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار في شمال الباب الغربي لمحكمة الاستئناف . وعند تلك النقطة كان يقع باب سمادة وهو آخر السور الغربي لمدينة جوهر .

وكان السور القبلي يبدأ من الكتف القبلي لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى إشارع للنجلة من الجهة القبلية ثم يمتد إلى إشارع المنجدين من الغرب وبين إشارع للمزدين الله (إشارع الناخية سابقاً) من الشرق وكان يقع باباً زويلة القديمان

الاذنات أنشأها جوهر في السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح ومن الجامع
لذلكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى
السور القبلى .

أما السور الشرقى فكان يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ثم يمتد
من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم
برج الظفر تقريباً .

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية ،
ولبى لهذا السور أثر اليوم .

السور الثانى :

لما تكلم المقرئى فى خططه عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية ذكر أن
السور الثانى بناء أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٠هـ — ١٠٨٧م وزاد فيه
من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس الدين أنشأها جوهر القائد فى سور القاهرة
البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحالىين ثم زاد فيه من
الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين الذين أنشأها جوهر فى سور
القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجمل بدر الجمالى الأسوار التى
أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

ويستفاد مما ذكره المقرئى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب
زويلة وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الذى أنشأه
صلاح الدين يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية
من سور جوهر هى التى تحده اليوم من الشمال بالسور الحجرى للوجود الآن الذى

يبدأ من النقطة التى يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح ، وتحدد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر ، وتحدد من الجنوب بسور جوهر وتمدد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التى فى أول الحد الشمالى من الشرق ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج .

أما الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الجنوبية من سور جوهر ، فتحدد اليوم من الشمال بسور جوهر ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير إلى الجنوب حيث ينتهى السور الغربى لهذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتحدد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق فى مكان الوجهة القبلى للبنانى القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصل إلى النقطة حيث يقع باب زويلة الحالى، ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخه أيدغمش ثم يسير من هذه النقطة إلى جهة الشرق فى مكان الوجهة القبلى للبنانى الواقعة بجزء من شارع الدرب الأحمر الواقعة فى حارة سمداقه ومنها تمتد إلى حيث ينتهى الحد القبلى عند البرج الذى يتبعه القارىء على السور اللبنى على خريطة القاهرة الحالية وتحدد من الشرق بسور القاهرة الحالى .

أشأ بدر إلى أسواره باللبن ماعدا الجزء الواقع بين بابى الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبي البابين المذكورين وعلى جانبي باب زوية فهى بالحجر على مسافة ١٢٠ مترا تقريبا من كل جانب وقد زال أثر الأسوار التى أنشأها بدر الجمالى باللبن وأقام صلاح الدين فى مكانها بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر فى سيوره الثالث الذى سيأتى ذكره فى القاهرة صلاح الدين .

أبواب القاهرة

كان للقاهرة ثمانية أبواب ، لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة وكان بابين في الأصل بينهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد أبي البناء وعند الحجارين (١) .

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فإنشاء صغير به ضريح لمن يدعى « سيد فرج » وهو ليس سوى باب الفرج ، وفي الجهة البحرية التي يسلك منها إلى عين شمس .

باب النصر : موضعه الأول بالرحبة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذي يشغله الباب الحالي . وقد ذكر المقرئ أنه رأى جزءا من جانبه المواجه للركن الغربي للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عند البابين لجامع الحاكم .

باب الفتوح : ذكر المقرئ أنه كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة

(١) مسجد ابن البناء هو الذي يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشوارع الميخيلية وتسميتها العامة زاوية سام بن نوح وقد بني المسجد المذكور الحاكم بأمر الله وما ابن البناء سنة ٥٩٨ هـ وقد أزيل بابا زويلة الإصليان وبني أمير الجيوش بدر الخالجي بدلها باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم . وتسميتها العامة بوابة المتولى حيث كان يجلس في مدخله متولى حبه القاهرة - تعليق محمد بك رمزي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) محمود أحمد : مجلة الهندسة - ١٩٣٤ ص ٣٣٢

الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبلها دون جدار الجامع الحالكى (١) .

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان هما :

باب القراطين (المحروق) : يمكن تعيين موقع هذا الباب تعييناً أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذى حل محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق (٢) ويرى الأستاذ كريستوفل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالى (٣) .

وباب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لأثر الفصل الذى بحث فيه للقرىزى أبواب القاهرة وقف عند باب البرقية ، ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالى الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد يباب الغرب .

أما الجهة الغربية من القاهرة وهى اللطلة على الخليج الكبير فقد كان فيها باب سعادة : أول أبواب السور الغربى من الجنوب . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام للمز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد الغرب بعد بناء القاهرة

(١) الخطة المقرية : ج ٢١٠ و ٢١١ - طبعة النيل

(٢) أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب ما فعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهرة عند ما علموا بقتل الفارس الأمير القطاى فى ٢١ شعبان ٦٥٢ هـ فى أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت العادة فى ذلك العصر إذا كانت تطلق أبواب مدينة القاهرة فى الليل فاوقدوا النار فى الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق المقرىزى — طبعة النيل ج ٢ ص ٢١٣ .

K.A.C. Creswell: The Foundation of Cairo, P. 272 (٣)

نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة ودخلها من هذا الباب، فعرف به وقيل له باب سمادة ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبي للجانب الغربي من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالي الشرقي للحكمة الاستئناف .

باب القنطرة أو الجسر : عرف بذلك الاسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذي بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى القس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجواني تجاه مدرسة باب الشمرية (١) . وقد سمي العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشمرية في حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج بميدان المدوى بين مارعى المدوى وسوق الجرابية وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها للقريزى باسم قنطرة باب الشمرية وتعرف في أيامنا باسم الحروبى والمدوى وللخروبي مدفونان في مسجد بجوار موقع الباب المذكور .

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة ، فكان أول أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد القريزى أن القائد جوهر بدأ عمارته في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ولما أتم تشييده بسد عامين فتح للصلاة في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونية ٩٧٢ م) (٢) وبعد الأزهر أول عمل فنى معمارى بناء الفاطميون في مصر لا يزال قائماً لليوم .

(١) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٩

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ ، صبح الاعشى للقفشندي ج ٣ ص ٣٦٤ ، حسن المحاضرة للسيوطى ، مطبعة الموسوعات ج ٢ ص ١٠٤ .

بني الجامع الأزهر في شرق المدينة على مقربة من القصر الكبير الذي كان موجوداً حينذاك بين حي الديلم وحي الترك . وكتب جـوهر بدائرة القبة في الرواق الأعلى نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ تجمد نصه في الخطط للقرينة وقد اندثر هذا النقش .

ويعد التخطيط الأصلي الذي أنشئ هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التي لا يمكن الإهتمام إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين في بناؤه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه في خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة ويحتوي الجامع على بقية ضئيلة من الألفايز المشتملة على كتابات كوفية التي تعد منميزات العمارة الفاطمية فإن جل أجزاءه الحالية من عصر متأخر إذ أضاف المستنصر والحافظ في بيان الجامع بعض أجزاءه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباي أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع . وإنشاء الفاطميين لهذا المسجد لا يفسر الاسم الذي أطلق عليه ، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التي سميت باسمها مقصورة في المسجد وقال بعضهم أن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التي بنيت حين أنشئت القاهرة ، وقال آخرون إنما سمى كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن والسكان بازدهار العلوم فيه . وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة للشيعة تدرس فيها العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمي كما كان أول من أجرى الأرزاقي على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحي العالم الإسلامي .

(١) نص هذا النقش : بما أمر بينائه عبدالله ووليه أبو تميم معد ، والامام المزلزلين الله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي في سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م)

أخطاط القاهرة

نتنقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التي اشتملت عليها القاهرة للحرية :

سبق القول أنه في اليوم الذي خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التي تآلف منها الجيش الفاطمي خطه عرفت باسمها وقد كان أهم تلك الخطوط أو الحارات ما يأتي :

١ — حارة الروم : كانت حارتين : وهي التي لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة . وقد نسبت إلى الإشراف الجوانيين .

٢ — حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدماة القصر في أيام العزيز بالله نزار الميمني . وصار في أيام الحاكم بأمر الله مديراً لمملكته حتى قتله في أحد قصوره .

٣ — حارة زويلة : منسوبة إلى زويلة إحدى قبائل البربر التي وفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة .

٤ — حارة الجندرية : وهي طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدي أبو الخلفاء الفاطميين . وقد سكنها اليهود بعدهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقهم ليلاً .

• — حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة^(١) وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس للدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين ، وكانت بهادار الوزير عباس

(١) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة في أول شارع خان الخليلي على يسار داخله من جهة شارع القمصانجي من شارع بين القصرين — تعليق محمد رمزي — النجوم الزاهرة ج ٤ ، ص ٣٦ .

٦ — حارة الديلم : منسوبة إلى الديلم الذين أتوا برفقة « فتكين » غلام المعز ابن بويه الديلمي الذي تغلب على الشام في عهد المعز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع في أسر المعز بالله في مدينة الرملة وساقه إلى القاهرة فعامله بالحسنى وأنزله مع أصحابه بهذه الخطه وكانت بها دار الصالح طلائع بن رزيك .

٧ — حارة الباطنية : وتعرف بقوم أتوا مع المعز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئاً فقالوا « رحنا نحن في الباطل » فسموا الباطلية (١) .

٨ — حارة الكافورى : كانت بستانا للأستاذ الملك كافورا لأخشيدي ثم صار من بعده للخلفاء المصريين .

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه في بادئ الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة إلى ملوخية أحد فراشى القصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك .

١٠ — حارة العطوف منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدم القصر الفاطمي وتدل على موقعها المنطقة التي يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر .

١١ — الوزيرية : منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة .

١٢ — حارة الحمودية : أو المسامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالحمودية التي قدمت أيام المعز بالله الفاطمي إلى مصر .

وعلى مر الأيام زاد عدد هذه الخطط وتطورت كثير أفي أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلاً (٢) .

(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطنية في الجنوب الشرقى لجامع الأزهر .

(٢) تبحث المراجع الفصله - كلفريزى وعلى باشا مبارك ورافيس .

القصور الفاطمية

وصف القريري قصور الفواطم فيما لا يقل عن مائتي صفحة . وقد حفر جوهر أساس القصر الكبير في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩) واستمر العمل في أقسامه للمتمدة عدة سنين . واشتمل هذا القصر في داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها جهو الذهب والاقبال والظفر والشجرة وقصر الشوك وللزرد والتلسم والبحر والحريم .

ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمر وباب السميد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب ربة الزعفران ثم باب الزهومة . وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة في يوم الإثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود في يومى العيدين .

أما القصر الصغير فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ وقد قال المسبحى عنه « لم يبن مثله في شرق ولا في غرب » وكانت له عدة بوابات أهمها باب السباط وباب الثبائين وباب الزمرد ، وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض وكان ينزل منه الخليفة بمنطياً ظهر بدلاته تحيط به فتيات للقصر .

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا في عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م في خلافة المنتصر وقد شغل موقعه فيما بعد للمارستان الكبير للنصوري إلى جوار حارة برجوان .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة ودار الوزارة الكبرى ودار الغرب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة (الدار الأفضلية) أمير

الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي ثم سكنها أرباب السيوف أمراء الجيوش المصرية بالتوالي إلى أن تولى الأيوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده دار الحكمة .

وفي أيام الظاهر بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربي ، وقد افتتحت في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩٥ هـ ، واستمرت تؤدى رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن القائد بدر الجمالي ، وربما يكون أحسن وصف لقصور القاهرة للعزية ما جاء في تلك الوثيقة التي ثبتت عظمة العصر الفاطمي وأهتسه حين زار الخليفة رسولا الملك عمورى (أماريك) سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ليعقدا معه باسم سيدهما تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي ألف دينار ممجلة ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصدم الأعداء عنها .

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن حماسهما وأعجابهما بمظمة ما راوه وروعته ، وقد نقل جستاف شلبرجيه إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم في هذا الصدد ، كما لحص لين بول بعضه في كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين (٢)

« سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان وفيه زخارف أنيقة نضرة ، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جيد التأثير دون أن يتطرق إلى نفوسهم أى خوف أو رهبة ، ووجدوا في القصر حراساً عديدين وسار الحراس في طليعة اللوكب وسيوفهم مسلولة . وقادوا الفرنج في ممرات

(١) المخطط المغربي نقله عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ - طبعة النيل

(٢) كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ٧١ - ٧٥

طويلة وضيقة وأقنية حالكه الظلمة لا يستطيع الإنسان أن يتبين فيها شيئاً . وربما كان المقصود بذلك بثث الرهبة إلى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة . كان يسهر على كل منها عدد من الحراس للسليحين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام . ثم وصل للوكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنصارته وبهائه ، كما كانت الواح السقف تزينها الرخارف الذهبية الجميلة .

كان كل ذلك موقفاً رائعاً وبهياً رائعاً بحيث لا يملك أشغل الناس بالا وأكثرهم هما إل أن يقف للاعجاب به ، وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، وكانت تزفر في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان اللطيفة في الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق ، ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجاباً بها ، ودون أن يقول أن الطبيعة كانت تموج وتلعب حيث كوت هذه المخلوقات ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يطلو بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته ، وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه .

وهنا استأذنت الحراس الذين كانوا يسيرون في ممية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت في الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء اللقبين إلى الخليفة نفسه .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أفنية أشد جمالا وإبداعاً إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها ، ورأوا في هذه الحديقة

أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب إذا وصفها
وتحدث عنها — وبحيث لا يستطيع أى مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه
الكائنات العجيبة ، فإن الغرب لم يرق قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما
كان يسمع من الأقوال .

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى — وساروا فى تماريح كثيرة كانوا يرون
فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجاباً . وصل الفرنج إلى القصر الحكيم حيث
يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما شاهدوه قبل ذلك . وكانت أفنية تفيض
بالمحاريق للمسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدرع تلمع بالذهب والفضة
وعليهم سيوف الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز .

وأدخل للبعوثون فى قاعة واحدة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحبر
المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية ، وكانت
تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن فى هذه القاعة
أحد ، لكن شاور خرا كما فور دخوله ونهض واقفاً ثم قبل الأرض ثانياً وخلع
السيف الذى كان يلمع فى عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة فى ذلة وخشوع كأنه يسجد لله
وارتفعت الجبال فجأة وانكشف الستارة الحربية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملأه
خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان الماضد) لأعين الفرنج للبعوثين ، وكان على
وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر
والأحجار الثمينة .

المعز لدين الله وبناء المعس

كان الخلفاء الفاطميون من أعظم الملوك الذين حكموا مصر ، وكان المعز نفسه حاكماً قادراً أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة وكان نزيهاً عادلاً يشرف على القضاء ويقود الجيش الذي اعتمد عليه في الدفاع عن البلاد — والمعز هو الذي بنى مرفأً جديداً للسفن في المعس شمال مرفأى الروضة ومصر (بالقرب من موقع ميدان — رمسيس الحالي) ، ولقد ظلت المعس مرفأً للقاهرة حتى تحول النيل عن مجراه — وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة « ناصر خسرو » عدة سفن للمعز في عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدماً وعرضها ١١٠ اقدام .

ومع أن المعز كان حازماً محباً للعمل فقد كان ميالاً إلى المظاهر الرسمية فكان يذهب في موكب فخم لحفل قطع الخليج . وكانت يندق في الاتفاق على كموة الكعبة في مكة المكرمة . وكان يهتم لكي تكون القاهرة مدينة ذات فخامة وترف وغنى وقد صرفت زوجه مبلناً على مسجدتها في القراة والذي وضع تصميمه « الحسن ابن عبد العزيز الفارسي » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة ، وقد شيد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الاروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القراة قائماً إلى أن احترق في السنة التي احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « امريك » ملك بيت المقدس للقاهرة أثناء حصاره لها .

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز ولثلاثين ألف من اتباعه وما دعت إليه مظاهر الترف تنجي كضرائب أو أقساط تجمع في دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه في يوم واحد جمع من مدينة مصر في أسعد مجدها مبلناً يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنيه و ٢٢٠٠٠ جنيه وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية .

العزیز بالله (۳۸۶ - ۳۶۵)

ولما توفى للمز بویع ابنه العزیز بالخلافة وعین یعقوب بن کلس وزیرا له وقد شاطر العزیز أباه صفاته السیاسیة فلم تضعف من همته مظاهر الترف وشید أمطولا لمحاربة امبراطور « باسیل » وانتصر القائد « جوهر » فی عدة معارك بالشام وقد عرف عهده فی مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعا باقتناء الكتب فجمع منها مكتبة کبیرة خصص لها قاعات فی قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال فی تشجیع كتابة المؤلفات المهمة فی التاریخ والآدب والفقه . وكانت بعض الكتب بخط المؤلفین أنفسهم كالخیل بن أحمد والطبری (۱) .

ومن أثار العزیز جامع الحاکم الذی أمر ببنائه فی شهر رمضان سنة ثمانین وثلثمائة هجریة . وقد اتم جانباً کبیراً منه فی مدة عام وخطب فیہ العزیز وصلى الجمعة فی الیوم الرابع من شهر رمضان عام ۳۸۱ هـ . ولما تولى العرش ابنه الحاکم أمر وزیرہ « یعقوب بن کلس » بأن یم بناء الجامع ویكمل زخرفته ومثذنته . فبدأ عمله فی عام ۳۹۳ هـ وقدر للنفقة علیه أربعین ألف دینار وانتهى منه فی عام ۴۰۳ هـ وعند انجازه علق علی سائر أبوابه استاراً دینیة عملت له وعلق فیہ أربعة تنانیر فضیة وكثیرا من القنادیل الفضية كذلك ، وفرش أرضه بالسجاد ونصب فیہ المنبر .

جامع الحاکم بأمر الله

عرف أولاً بجامع الخطبة ثم جامع الحاکم وقیل له الجامع الأنور (كالأزهر) ولقد هرت علیه من حوادث الأيام ما لا تقبل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصلیبیون القاهرة فی سنة ۱۱۶۷ حولوا جانباً منه إلى كنيسة ، وباستیلاء صلاح الدین علی مصر أبطل استخدام الأزهر وجعل جامع الحاکم المسجد الرسمى للدولة .

(۱) الدكتور زکی محمد حسن : كنوز الفاطمیین ۱۹۳۷ - القاهرة

وفي اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعائة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكمي بسقوط عدد كثير من بدناته وخربت أهالي مئذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه . وفي العام التالي أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ما تهدم منه — وإعادة ما سقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه ورعمه فماد جديدا .

ولما كتب المؤرخ للقرنيزي خططه المشهورة في ابتداء القرن التاسع الهجري كان الجامع مغربا وسقفه مهشما وآثار النار والحراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجد على قدميه وكانت الفترة السعيدة التي مرت عليه لما أقيمت في بعض اجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لاتزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على جمال فنه .

وجامع الحاكم عمل أثرى نادر ، ومئذنتاه جدداهما أثر زلزال عام ٧٠٣ هـ بيبرس الجاشنكير . قاعدة مربعة تتحول إلى شكل مشمن الاضلاع ويتطور إلى شكل أسطوانى يحترقها سلم لولبي من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن .

تولى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١٤ هـ) الخلافة الفاطمية وعمره أحد عشر سنة وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير من أحواله وحوادثه . ولما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل تلك المتناقضات نراه في جامع العظمير يراقب زخرفته ونقوشه ، أو في داره — لم التي أنشأها بجوار القصر الغربي في سنة ٣٩٥ هـ — والتي حمل إليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أما كن ينفق من ربحها ، وكان الغرض من دار الحكمة تشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للنقاش والتبحر في علوم الدنيا والدين .

ولما مات الحاكم تولى ابنه الظاهر لاهواز دين الله أبو الحسن على فأباح مأمته
أبوه الحاكم فحرب الحمر وجمع باحتسابها . وكان ضعيف الرأي منصرفاً إلى اللهو
وكثر في أيامه الفتن العسكرية فلا تخدم فتنه حتى تعقبها أخرى وضاعت أبواب
الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة الفلاء فصاح الناس « الجوع يا أير
المؤمنين . لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فאלله الله في أمرنا » .

ولما توفي الظاهر تولى ابنه للتصير (٤٢٧-٤٨٧ هـ) وكانت سنة عند مبايعته
لا تزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت قليلاً كما شهد الرحالة
الفارسي ناصر خسرو عند زيارته لمصر بين عامي (١٠٤٧ - ١٠٤٩ م) فقد قال
أن الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم دون أن يفتقروا أبوابها في أوجه
الوصوص وكان عدد الحوانيت في القاهرة أكثر من عشرين ألفاً كلها ملك الخليفة
يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنائير شهرياً . وكان يمتلك أيضاً عشرين ألف
منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إيجار الواحد منها سبعون جنيهاً
في السنة . وكانت تلك المنازل مشيدة بالحجر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة
غناء . ولم يكن للقاهرة أسوارها فقد هدم السور لتقديم الأول وتهدمت أجزاءه .
ولم يكن قد ابتدئ في بناء السور الثاني (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت
تلك البيوت الشاهقة التي وصلها الرحالة مشيدة على نمق الاستحكامات . وكل قصر
منها يشبه قلعة مصفرة . وكانت للسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد ، تنافرت
فيها للبساتين ومناظر الضواحي وتمرها مياه النيل في أثناء الفيضان .

وفي أثناء إقامة « ناصر خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية ولكن
الوزير القادر ليازوري استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على
المجاعة التي نشبت أظفارها بمنزله كبات من الللال بمخازن يوسف بالقرب من
مصر القديمة .

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيراً من وزارته في مدة تسع سنوات فضاحت هبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجنود الترك الذين اتفقوا مع البربر وطرّدوا الجنود السود من القاهرة . وتبّت هؤلاء أقدامهم في بعض نواحي الوجه القبلي فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فأنفدوا مسالك الري ليفتسكوا بالفلاحين حينما انفرّد الترك بالعاصمة فأنفقوا قصور الخليفة للفناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من المجوهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم وبعد ما اتهموا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ما وجدوه فيها من التحف ثم عمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منها - آلافاً من الكتب في مجلّتها ٢٤٠٠ مصحفاً . وقيل أن عدد مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مخطّطاتها لإصلاح نظمهم ولإيقاد نيرانهم . وما لم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تللاً عرفت بتلال الكتب .

وتصادف أن قصر النيل في فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وامتد الجوع إلى سنة ١٤٦٤ هـ . وكان أشده سنة ١٤٦٢ هـ . ثم توالى للفقائل التي اقتضت الإسراف في الحبوب المخزونة وندرت الحنطة وبلغ ثمن الأردب الواحد مائة دينار والقط ثلاثة دنائير والكلب خمسة دنائير (إذا وجد) ورافق هذا الفناء وباء مكث سبع سنين ، فلم يبق من يزرع . وأخيراً لما لم يجد الناس حيواناً يقتلونه ليأكلوه اختطفوا بعضهم بعضاً وباع القصابون لحم الإنسان ، ثم جاء الطاعون فكان يحصد أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة في الحمامات العامة واضطر الخليفة في نهاية الأمر بعد أن تخلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته إلى بنسداد إلى أن اضطرت الظروف أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما إبنه عالم . غير أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قامت مصر في أثناءها مالم تره في أشد عصورها ظلاماً وكان المستنصر قد انتجأ

إلى حاكم سورية الأرميني « بدر الجمالي » فكتب إليه ليجمع على رأس جيشه إلى مصر ليوليها فقبل بدر الجملي إليها وكان عبداً رفعت كفاءته للمنازة إلى الناصب السامية ، فولى إمارة دمشق ثم عكا .

أبواب بدر الجمالي

وصل بدر الجمالي إلى القاهرة في يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأول سنة ١٢٦٧ هـ / ١٠٧٩ وقابل الخليفة . وفي ليلة من الليالي دعا أمراء البلاد إلى وليمة أولها لهم في منزله وبقيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فإنهم لابد يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم قتل . فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهـارهم عنده وباتوا مطمئنين وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على دور الأمراء فقامت شوكتة وعظم أمره وخلع عليه للتتصر والطليسات وقيل وزارة السيف والقلم وزيد في القاب له لقب « أمير الجيوش » كمثل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ولما أعاد النظام إلى نصابه في القاهرة انجبه فاصداً أقاليم القطر ليقضى على فتنها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب ، وأعاد الطمانينة إلى قلوب الفلاحين . فازداد الدخل وشعر الأهليون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية وعادت مكة إلى مبايعة للتتصر بعد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد .

تنتست القاهرة السعداء مدة حكم الوزير بدر الجمالي . فمنذ مضى قرن على جاء الخليفة العزيز القصر الغربي ومنظرة المؤلوة لم يصف إلا الأشياء القليل على مهارته ، وجاء للتتصر بفضل الإقامة في القصر الذي شيدته بالطرية حيث أقام جوعنا . وكان أول ماوجه إليه بدر همته — تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية

أو فتن الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تم لهم أمام نحو مساحة المدينة التي ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الشمالية والجنوبية التي بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبناها من الحجارة (١٠٨٧ - ١٠٩١) وجعل للمدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلا أخذ حتى الروم في الجنوب إلى داخل السور وكان في خارجه ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد — وزاد عند باب القصر الرحبة التي تجلجها جامع الحاكم إلى باب النصر . وتلك الأبواب الثلاثة لم تتغير إلى يومنا هذا — غير أن باب زويلة خفض قليلا من أبراجه لكي يتسع لبناء مشذني جامع لؤلؤيد في أثناء القرن الخامس عشر — الميلادي وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة من من أعظم آثار العصر الفاطمي . وقد بناها ثلاثة أخوة وفدوا من أديسا للمدينة الأرمنية الأسفل التي عرفها بدر في أثناء فتوحاته ، وقيل أن كل أخ منهم شيد بابا .

وتنعت مصر أكثر من ستين عاما تحت حكم بدر الجمالي إلى أن توفي في القاهرة وهو في الثمانين بعد حكم دام عشرين سنة ، وخلفه الأفضل وكان فاضلا حكيما تدرب على أبيه وقد تمتع بجميع الألقاب والأمتيازات التي كانت لأبيه أمير الجيوش وظل في منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الأمر في عام ١١٢١ وتولى الأمر من بعده ابنه « أبو علي » في عام ١١٣١ . ولما قتل وهو في طريقه إلى ميدان لعب الكرة خلفه أحد مماليك الأفضل وأسمه « يانس » (١) ثم جاء من بعده « بهرام » للسيحي الذي تربع في كرسي الوزارة حتى عام ١١٣٧ م .

(١) ينسب إليه حي (حارة) الياسية وكانت واقعة خارج باب زويلة وتتصل اليوم بالدرج الأحمر .

الصالح طلائع

قتل الخليفة الأمر في ذي القعدة (٥٢٤هـ) وهو في طريقه إلى زيارة مشوقته البدوية في جزيرة الروضة وكان عمره ٣٥ سنة . ومن أعماله التي تذكر له بناءه مسجد الأقمر بين القصرين . وكانت عقود الداخلية من الأجر اقيمت على أعمدة من الرخام وقد نقش على أفريز للمجد بالكوفية اسم الأمر وتاريخ بنائه ٥١٩هـ .

وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك وإلى الأثريين مجموعة إلى القاهرة واستولى على الوزارة ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز في عام ٥٥٥هـ وأقام الصالح بن زريك في الخلافة العاضد لدين الله ، وقد منحه لقب للملك الصالح . وكان شاعرا مثقفا وكريما سياسيا لازال مسجده قائما أمام باب زويلة . قد مات ضحية نساء القصر اللاتي أوسلن إليه بعض رجالهن فكمنوا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط منشيا عليه وحمل جريحا . وكان آخر ما فاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقدس من أيدي الفرنج ونصيحته لابنه أن يحذر « شاور » الحاكم العربي لوجه القبل . وقد كان الندم والحذر في عملهما إذا خلع شاور بن الملك الصالح وأمه عبي الدين زريك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور في عام ١١١٣م ودخل في السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية .

وكان جامع الصالح طلائع آخر أجمل جامع أنشئ في عهد الدولة الفاطمية ووجهته النورية الفاطمية لانظير لها في جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها ويزيد في جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقي في ذلك العهد .

ظاهر القاهرة الفاطمية

تسكنا عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشأتها الهامة ، وسنصف ما لحق بها من تطور ونمو حتى نهاية الفواطم . كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبلية (باب زويلة) متصلة بمصر التي امتدت بين الخليج الكبير وجبل القعطم وهذا الامتداد كان قسمين : ما حاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر ، وما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع ، والقشاشين وقنطرة باب الحرق وخط قناطر السباع ويدخل في ذلك سوقة مصفور وحارة الخزيين وحارة بنى سوسى إلى الشارع وبركة الفيل والحلالية والحمودية إلى الصليبة ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأماكن تعرف بمحان الزهرى وبستان سيف الاسلام وغير ذلك . وأما ما حاذى شمالك فكان جامع الصالح طلائع والدرب الأحمر إلى القطن . وكانت فيما بعد الرملة ولليدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التي فيها الخليج الكبير فهي من باب القنطرة إلى القس وما جاور ذلك فإنها كانت بساتين في غربها النيل ، وكان ساحل النيل بالقس حيث جامع أولاد عنان الآن . فيمر في القس إلى المكان الذي يقال له الجراف ومواقع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضي اللوق والزهرى وغيرها . وكان فيما بين باب سعادة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لابنيان فيه . وللناظر كشرف على مافي غرب الخليج من البساتين التي خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج باب الفتوح والنصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظرة من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران ، ومن غرب هذه للمنظرة في جانب الخليج الغربي منظرة أخرى . أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من المصلى إلى الريدانية .

أما جهة القاهرة الشرقية وهي بين السور والجبل فإنه كان فضاء ، ثم أمر الحاكم

بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور لمنع السيل من دخوله القاهرة
فصارت منها الأكوام التي عرفت بكيمان البرقية .

ولكى نوضح مراحل نمو القاهرة بإيجاز نذكر مايلي :

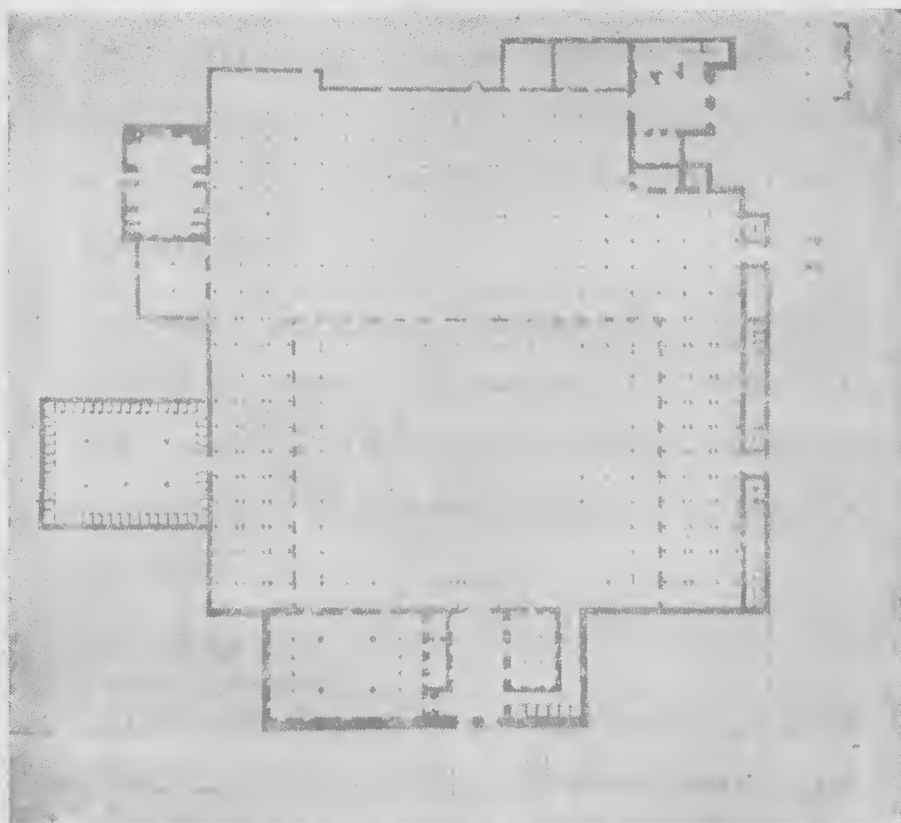
١ - توسعت القاهرة في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله (حكم بين ٩٩٦ و ١٠٢٠ م) من ناحيتها الشمالية والجنوبية . ففي الشمال خارج باب الفتوح ذكر
للمقرئى (١) أن الطائفة الحسينية وهي إحدى الطوائف الفاطمية سكنت حارة
(خطة) الحسينية وكانت تتألف من عدة حارات يتوسطها اليوم من الجنوب الى
الشمال شارع الحسينية وشارع البيومي من باب الفتوح الى ميدان الجيش .

ويقول المقرئى في المخطط عن الحسينية : احدهما ماخرج من باب
الفتوح ، وطولها من خارج باب الفتوح الى قرية الخندق (٢) وهذه الشقة هي التي
كانت مما كن للجند في أيام الخلفاء الفاطميين ، والشقة الأخرى ماخرج من باب
النصر ، وامتد في الطول الى الريدانية (الباسية) ، وهذه الشقة لم يكن بها في أيام
الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العبد نجاه باب النصر وما بين المصلى الى الريدانية فضاء
لا بناء فيه ، وكانت القوافل اذا برزت تريد الحج تنزل هناك ثم صارت هذه المنطقة
مقابر أنشئت حول قبر بدر الجمالي الذي أقامه خارج باب النصر واستمر ذلك الى
ما بعد سنة سبعمائة هجرية (١٣٠٠ م) .

وفي زمن الحاكم بأمر الله أيضا أخذ الأهالي جنوب السور الجنوبي يعمرن
وينون خارج أبواب زويلة والفرج . وكانت هذه الجهة حتى أوائل القرن الحادى

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى / ج ٤ ص ٤٥ .

(٢) على مبارك : المخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٤٢ .



الأزهر :مسطح أنفي

عشر غير عامرة بالمباني حتى مدينة لقطائع الطولونية ، وسرعان ما نهضت «ضاحية» امتدت تدريجياً حتى عظمت زمن المجاعة المعظمى في أيام الاستنصر لدين الله (١٠٣٥ — ١٠٩٤) حيناً بدأ نجم الفسطاط في الأفول .

٢ — حارة اليانسية :

تنسب هذه الحارة الى أبي القتح يانس مملوك الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (١١٣٠ — ١١٤٩) ووزيره ولقب بأمير الجيوش أيضاً وهو صاحب الحارة اليانسية التي كانت واقعة خارج باب زويلة ، وحرفها الناس الى حارة الانسية ولها اليوم مدخلان أحدهما من شارع الدرب الأحمر تجاه جامع قبحاس الأسحقى (أبو حريية) وثانيهما بشارع المقربلين .

وفي خطط ابن طولون في الجنوب (حول المسجد الكبير) ، أمر الحاكم بامر الله ببناء ثلاثة مساجد معلقة منها مشهد عمدة الأصنغر ، ومنها المسجد المعروف عند العامة بمسجد الشيخ عبد الرحمن الطولوني لأن العامة تزعم أن به قبر الشيخ عبد الرحمن الطولوني ، وأما المسجد الثالث فلم يثر على آثاره ومن المحتمل أنه كان بالقرب منها . (١)

٣ — فوق جبل للمقطم :

وفي أواخر القرن الحادى عشر شيد بدر الجمالى مسجد الجيوشى فوق المقطم ويرجع هذا المسجد إلى عام ٥٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وهناك عدة مشاهد — وقباب شيدت أيضاً خارج القاهرة للنواظم في القرن الثانى عشر كمشهدى كلثم والسيدة رقية وقبة القاسم الطيب . وكان مسجد الصالح طلائع خاتمة المباني الفاطمية التي شيدت خارج باب زويلة في عام ١١٦٠ .

(١) على مبارك : المخطط ج ٢ ص ٤٢ .

ولنرجع إلى ما ذكره المقرئ في خطه عندما أشار إلى ما بناه ، الفاطميون في ظاهر القاهرة : « توسع الناس في العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمار بمدينة الفسطاط ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر إلى أن انتهت العمار إلى الريدانية (العباسية اليوم) وبنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذي يقال له بولاق حيث شاطئ النيل . وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السور فصار حينئذ العمار بالسكنى على قسمين أحدهما يقال له القاهرة وآخر يقال له مصر » .

(٤) ويبدو أن المقرئ نسي أن يذكر تاريخ هذا التوسع العمراني ومق حدث ولكن لم يفت على مؤرخنا الجليل أن يؤرخ التوسع الفاطمي التالي ، فيذكر لنا أنه في عهد الخليفة الأمر بإحكام الله (١١٠١ - ١١٣٠) نادى وزيره محمد بن فائق المعروف بالمأمون بن البطائح بتعمير الخرائب والفضاء الذي يقع بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة فنودي لمدة ثلاثة أيام بالقاهرة ومصر بأن « من كان له دار في الخرائب أو مكان فليعمره ومن عجز عن عمارة يبيمه أو يؤجره من غير نقل شيء من اتقاضه ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له في شيء منه ولا حكر يلزمه » فلما نادى الوزير للمأمون عمر الناس ما كان من ذلك مما يلي القاهرة من جهة المشهد النفيسى إلى ظاهر باب زويلة ، ولم يبق من المعمر ما هو عامر سوى جبل يشكر الذي بنى عليه جامع ابن طولون (٣) . ولكن في أيام صلاح الدين الأيوبي حينما بدأ بناء قلعة الجبل (بعد ١١٧٦) أمر بهدم عدد كبير من مساكن تلك الضاحية ، ربما حرصا على الأمن ، وأقام على أرضها البساتين وأخذت تشغل للساحة الممتدة من باب زويلة إلى المشهد النفيسى حيث كانت تنهاله تلك البساتين الخضراء .

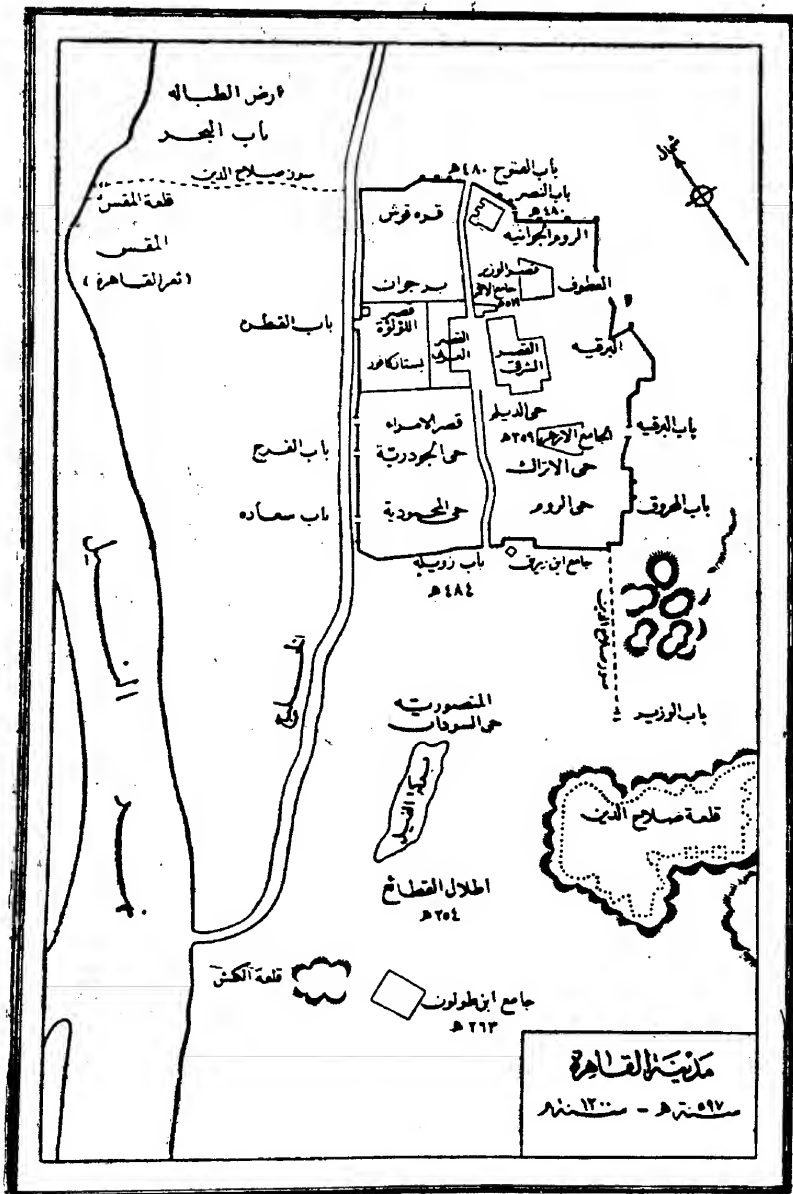
(١) المقرئ : خط ، ج ١ ص ٣٠٥

وهناك في أقصى الجنوب ، وأمام مدينة الفسطاط حيث يجري النيل تقابلنا جزيرة الروضة التي تتوسطه . وكان الولاة العرب قد عذبوا بها وفي أثناء إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ - ٨٨٤ م) أعاد بناء أسوار الجزيرة وحصنها (٨٧٦ م) وجعلها مقرا لخزائن أمواله وشيد فيها الدور كما أقام فيها دار صناعة للسفن الحربية وكانت مقر ديوان الجهاد . وفي أيام محمد بن طنج الأخشيد أنشأ بستانا ودارا سماها المختار .

ثم عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذي أنشأ في نهايتها البحرية البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش وبدر الجمالي في عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦) وسماه الروضة ، ويوضح هذا مبلغ عناية أحد الأمراء الفوالم بموقع الروضة التي مارحت منزلها ملكيا ومسكنا للاهالى .

طرح نهر النيل وظهور أرض جديدة :

طرا على ساحل النيل الشرقى فى السافة للمتسدة من الفسطاط إلى روض الفرج تسع قنارات على الأقل فيما بين عام ٦٨٨ م أى فى زمن حكم الدولة الأيوبية ، وعام ١٨٣٠ فى أثناء حكم محمد على . وبهنا ونحن بصدد الحديث عن القاهرة فى العصر الفاطمى أن نشير إلى طرح النيل الثالث الذى ظهر حول سنة ١١٢٦ م فى أيام الدولة الفاطمية ، إذ طرح النيل أرضا جديدة كسبتها القاهرة وزاد فى عمرائها وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقى للمرة الثالثة إلى الغرب فى السافة التى بين جامع الطيبى بشارع الديورة . وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عرابى بشارع رمسيس . وقد نتج عن هذا الطرح للمنطقة التى تقع فيها اليوم كلية تجارة عين شمس . وه بانى وزارة



أحياء القاهرة الفاطمية وامتدادها في أوائل العصر الأيوبي
ملحوظة : صفة موقع باب الفرج في السور الجنوبي وليس في السور الغربي .

التموين القديمة (ووزارة البحث العلمى والرى والصحة ومجلس الشعب والجامعة
الأمريكية بالقاهرة وكلية اللبسة ووزارة الأوقاف والبنك الأعلى ويمر فيها شارع
شريف وامتداده إلى ميدان عرابى .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية لتطور القاهرة فى أيام الأسرة الأيوبية ،
وفى أيامها أخذت المدينة تتنازل عن مكائنها الارستقراطية التى تمتعت بها خلال
فترتين .

٢- امتداد القاهرة أيام الأيوبيين

أصبحت القاهرة الأيوبية فى آخريات القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر
تميز عى ذلك الممر الملكى الفاطمى . وأضحت تشغل مساحة قدرها عشر أمثال
ما كانت عليه ، فاحتوت على عدد كبير من المباني ذات الطابع الهندسى المتعددة ،
وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل اللقظم ، وكان الفضل فى هذه الانجازات
لصلاح الدين الأيوبي . غير أنه مات قبل أن يراها ، بل شاهدها أشقاؤه وأبناءؤه
وأحفاده وعاشروا فيها .

قلعة صلاح الدين :

كان بناء القلعة فكرة ابتكرها هذا الماهر ، فقد شاهد فى الشام أن لكل
مدينة قلعة حصينة تحميها . فلم لا يكون أيضا للقاهرة قلعتها ، كما لها سورها . . .
وهنا تنقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين فى هذا الشأن :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة كل واحدة منها سور
يحميها ، فقال : أن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها .
وأنى أرى أن أدير عليها سورا واحدا من الشاهين : وأمر ببناء قلعة فى الوسط
عند مسجد أسد الدولة على جبل اللقظم » .



نقطة من سور القاهرة العتيق

وأمر صلاح الدين ببناء القلعة في عام ١١٧٧ ، فأقام على عمارتها الأمير الطواشي بهاء الدين قره قوش الأسدي أحد أمراءه المخلصين ، ولم ينقض على العمل است سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الجدار الغربي من القلعة النص التذكاري لبنائها وذكر فيه عام ١١٨٤ ، ومات صلاح الدين (١١٩٣) قبل أن ينقضى بناء جميع أسوار القلعة فأهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل . فأنتم البناء

سور حول القاهرة :

أراد صلاح الدين أن يحيط على القاهرة الفاطمية ومصر (الفسطاط والمسكر والقطائع والقلعة سورا واحدا يحيط للمدينة الكبرى بأسرها فبدأ عمارة هذا السور الأيوبي (ويعتبر ثالث أسوار القاهرة عند الأكرين) عام ١١٧١ وهو يومئذ وزير الخليفة الماضد لدين الله وفي عام ١١٧٤ انتدب بهاء الدين قره قوش الأسدي لعمل هذا السور . فبناه بالحجارة . وزاد في سور القاهرة الغربي الجزء للمتدمن باب القنطرة إلى باب الشعربة ومنه إلى باب البحر . ومن قلعة المقس في نهاية السور الشمالي على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك ^(١) ثم زاد في سور القاهرة الشمالي الجزء الذي يلي باب النصر إلى برج الظفر في أقصى الشمال الشرقي للقاهرة . ومن هذا البرج الذي مازال باقيا في مكانه إلى باب البرقية في السور الشرقي . ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانتقطع لوفاة صلاح الدين .

(١) كان أمل صلاح الدين أن يمد هذا السور إلى مدينة مصر حيث كانت تجري المياه .



باب النصر

السور الغربى :

شرع صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ فى بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى فى محاذة سور بدر الجمالى وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فملاقطة من السور الغربى امتدت فى النهاية الغربية لسور بدر الجمالى الشمالى واتجهت نحو الغرب إلى باب القنطرة الذى انشأه صلاح الدين فى السور الغربى تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين . لكنه أوقف العمل ورأى أن يزيد فى سور القاهرة الشمالى ويمده إلى الغرب إلى شاطئ النيل الشرقى .

السور الشمالى :

شيد صلاح الدين قطعة من السور الشمالى غربى البرج المستدير الذى يقع على بعد ١٠٣ مترا غربى باب الفتوح ، وتمتد هذه القطعة عند برج كثير الاضلاع ثم تنحرف إلى الجنوب الغربى وتتجه ثانية نحو الغرب إلى أن تلتقى قريبا بشارع الخليج المصرى ، وقد ازيلت قطعة منها عندما شق شارع الجيش منذ ثلاثين سنة تقريبا . ولستمر هذه القطعة من السور إلى ما بين سكة الفجالة وشارع الطبالة حيث ما زالت توجد بقايا قاعدة برج مستدير ، كما بقيت اجزاء متتارة من هذا السور وبرج ، يشهد على ذلك اسم شارع البرج عند ملتقى شارع الظاهر وشارع الفجالة . وامتد السور الشمالى إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور للبرج المذكورة .

السور الشرقى :

يمتد هذا السور من باب الوزير إلى درب المحروق ، ومن درب المحروق يمتد نحو الشمال إلى برج الظفر . وبه الباب الجديد وباب لبرة وباب لبرة وباب القراطين

(الباب -- المحروق) ولا يزال باقيا إلى اليوم أجزاء كثيرة من سور الشرق ، منها الجزء الذى يمتد جنوبى برج الظفر بطول أربع مائة متر ويقع فى هذا الجزء الباب الجديد ، وتمد قطعة أخرى إلى قبيل باب البرقية ، وتحتفى أجزاء كثيرة تحت كيان القرباب ومن السور الذى ذكر القطعة التى تبدأ من برج درب المحروق وتسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ إلى أن تنقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير ، وهذا الجزء هو أطول الأجزاء الباقية من السور للشرق وحائطه أغلبه سليم إلى اليوم ، ومنه جزء آخر يمتد إلى الجنوب بين الحائقاء النظامية (وقد خربت اليوم) وبين بقايا جامع الصميعي (خرب) وطول هذه الجزء ١٢٥ م . وأما الباقي من السور للشرق وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر ، فلم يتبق إلا سلطان صلاح الدين أن يقوم به .

السور الجنوبي :

لما مد صلاح الدين سور القاهرة الغربى إلى غربى السور الفاطمى ، جعل باب سعادة (الثانى) فى نهايته الجنوبية وشيد قطعة جديدة من السور الجنوبي للقاهرة تصل إلى باب الفرج (الثانى) ثم انتهت بسور بدير الجملع وباب زويلة .

أما سور الفسطاط الذى يبدأ من الطرف الجنوبي الغربى للقلعة ، إلى الفسطاط فلم يصل به إلى النيل ، وقد بقيت منه عدة أبراج لم يكشف عنها جيدا من الناحية الأثرية ، واحتوى هذا السور على كثير من الأماكن للعقود السقوف لتسهيل عمل المدافعين عن المدينة . ولا يزال واحد منها قائما على بعد سبعين مترا جنوبى باب القرافة الذى فتحه الظاهر بيبرس فى حائطه بجوى الملام وذلك ليسهل على أهل القاهرة الخروج بموتام إلى القرافة (جبانة المليك وسيدى جلال والإمام الشافعى)

أبواب القاهرة الايوبية

نوجز الكلام الآن على أبواب القاهرة الايوبيين على ترتيب الأسوار :

١ — أبواب السور الغربى ، من الشمال إلى الجنوب (٥٥٦٤ - ١١٦٩ م) :

(أ) باب القطرة الثانى ٢ — باب الخوخة ٣ — باب سعادة .

(ب) أبواب السور الشمالى (٥٧٢ - ١١٧٦ م) :

١ — باب البحر (هدم حوالى ١٨٤٧) ٢ — باب الشمرية (هدم حوالى ١٨٨٤) .

(ج) أبواب السور الشرقى (٥٧٢ - ١١٧٦) :

١ — الباب الجديد ٢ — باب البرقية (تحت كيان الدرامة)

٣ — الباب المحروق وبرجاء الجانبين باقيان .

(د) أبواب السور الجنوبى للقاهرة (٥٥٦٤ - ١١٦٩ م) :

باب النرج الثانى (لا يعلم متى خرب)

(هـ) أبواب سور الفسطاط (٥٧٢ - ١١٧٦ م) :

١ — باب القرافة (بعض اجزائه باقية) ٢ — باب الصفاء (خربه الظاهر ببيرس) .

٣ — باب الفسطاط (بعض مداميك ابراجه الجانبية باقية) .

وننتقل إلى الكلام على كل منها : -

باب القنطرة الثاني

شيد صلاح الدين في عام ٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م على الحافة الشرقية للخليج، وعرف بهذا الاسم لأنه يقع تجاه القنطرة التي بناها جوهر القائد على الخليج الكبير في سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ / ٧٣ م (الخطط القرينية - ج ٢ ص ١٤٧)

باب الخوخة

شيد في واجهة باب الخوخة الفاطمي، ولا تعرف الظروف التي اختفى فيها هذا الباب. وكان يقع على مقربة منه مسجد باب الخوخة الذي يعرف اليوم باب جامع القاضي يحيى زين الدين.

باب سعادة

عرف باب سعادة الأول بهذا الاسم لنسبته إلى أحد قادة المماليك الذين بنوا الفاطمي سعاد بن حيان.

باب البحر

كان يعرف هذا الباب بباب القسم لوقوعه في قرية القسم التي كانت يقال لها القسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركبا عليه بوابة من الحديد، ونسب إليه ميدان باب الحديد وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع في البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالي عام ١٧٤٧.

باب الشعرية

كان يقع بين باب البحر والخليج في السور، وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط القرينية ج ١ ص ٣٨٢) ورسم هذا الباب

على خريطة القاهرة التي وضعها جران بك مدير التنظيم في عام ١٨٧٤ على رأس سكة باب الشمرية التي تعرف اليوم بسوق الجراية ، وقد أزيل هذا الباب في عام ١٨٨٤ لخلل مبانيه ، وكان يعرف أخيراً باسم باب المدوى . لوقوعه نجاه جامع المدوى .

الباب الجديد

أحد أبواب السور الشرقي للصلاحي عرف باسم الباب الجديد لأنه كان أول باب أنشئ في سور القاهرة للشرقي من الناحية الشمالية بعد باب النصر وله بدنتان كبيرتان . وقد كشفه الأستاذ كرين ويل الأثرى للمروف .

باب البرقية

من الأبواب الصلاحية ذكره للقرنزي (ج ١ ص ٣٨٠) وتكلم القلقشندي (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٤) بقى مدة طويلة مختفياً تحت كيان التراب حتى اكتشفه للرحوم على بهجت مدير الآثار العربية . ولا يزال هذا الباب موجوداً يأكله ويحتفظاً بشكله الأصلي من الأساس إلى الشرفات وقد نسب إلى جنود برقة في الجيش الفاطمي ، وعرف أيضاً بباب الغرب .

الباب المحروق

ذكره للقرنزي (ج ١ ص ٣٨٣) والقلقشندي (ج ٣ ص ٣٥٤) وكان يعرف قديماً باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوقى اللواشى والنم وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون المقرط وهو البعسيم .

يمكن أن نوجز أهم معالم القاهرة في أيام الأيوبيين فيما يلي :

(١) قلعة الجبل والصور :

كان لبناء القلعة والصور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران في القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش في القلعة نقل مركز نقل المدينة إلى وسطها وجعل القاهرة الكبرى تنمو وتتوسع من ناحيتها الجنوبية حتى كاد الاتصال يتم بين القاهرة الأولى وبين منسقاط والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء عدد كبير من المدارس الدينية بالقرب من ضريح الإمام الشافعي ، وجامع عمرو بن العاص ، وفي القاهرة الفاطمية أيضا . كما أن امتداد الصور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية يسر توسيع القاهرة في ذلك الاتجاه الجديد .

(٢) بركة الفيل :

تقع بركة الفيل خارج باب زويلة فيما بين القاهرة ومصر وشمال شرق ميدان السيدة زينب اليوم . ولم تكن بركة عميقة وإنما كانت تطلق في أرض زراعية ينمرها ماء النيل سنويا زمن الفيضان وكانت تروى من الخليج المصري وبعد نزول الماء تزرع أصنافا شتوية . تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة إلى السكن من سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٢ م) في العصر الأيوبي ، ولم يبق من أرض البركة غير بناء إلى عام ١٨٠٠ لإقامة أقيم عليها فيما بعد قصر عباس الأول وإلى مصر وهي المعروفة بسرأي الخلية وحديقتها وفي عام ١٨٩٤ قسمت أراضي الحديقة وفي عام ١٩٠٢ هدم القصر وقسمت أراضيها وبيعت وعرفت فيما بعد بالخلية الجديدة .

كانت بركة الفيل تشغل من القاهرة الحالية المنطقة التي تحد اليوم شمالا بسكة

الجبانية ومن الغرب بشوارع درب الجاميز واللبودية والخليج المصري، ومن الجنوب شارع عبد المجيد اللبان ، ثم يميل الحد إلى الشمال الشرقى حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويبر فيه إلى الشارع الألفى ، ومن الشرق تسكلة شارع نور الظلام فشارع مهذب الدين الحكيم فسكة عبد الرحمن بك وما في امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحد البحرى (محمد رمزى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٦٦-٣٦٧) . وهكذا نلاحظ أن منطقة سكنية جديدة عمرت في القاهرة على أيام الأيوبيين ثم ازدهرت كحي أرستقراطى في أيام المماليك وبقيت على هذه الحال على أيام العثمانيين .

(٣) جبل يشكر ومناظر الكبش :

يطلق اسم الكبش على الركن الشمالى الغربى من جبل يشكر حيث النقطة الواقعة غربى جامع ابن طولون ولا تزال هذه للمنطقة تعرف إلى اليوم باسم قلعة الكبش بشارع الشيخ عبد المجيد اللبان (مراسينا) سابقا . وفى أثناء سلطته الصالح نجم الدين أيوب أنشأ عدة قصور جميلة على ذلك الجبل عرفت باسم المناظر وكانت تشرف من أعلى جبل يشكر على بركة قارون وبركة الفيل وعلى البساتين التى فى بر الخليج الغربى من المقس إلى فم الخليج ، واتى فى بره الشرقى من باب زويلة إلى الصليبية ، كما أنها كانت تشرف على النيل وجزيرة الروضة وقلعتها ، فكانت منزهات جميلة يقصده الناس وقد تأنق الملك الصالح فى بنائها . وما زالت بعد وفاة الملك الصالح من للنازل الملكية إلى أن هدمها الملك الأشرف شعبان بن حسين فى عام ٧٦٨هـ (١٣٦٦م) فحكر الناس الكبش وبنوا فيه المساكن .

(٤) جزيرة الروضة :

وفي أقصى الجنوب ، وفي مقابل النيل ، شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٩ م) قلعة الروضة أو قلعة الصالحية وقد شرع في حفر أساس القلعة في يوم الجمعة ١٦ شعبان ٦٣٨ هـ ، وفي عاشر ذي القعدة وقع الهدم في الدور والقصور والمساجد التي كانت بالجزيرة وتحول الناس من مساكنهم التي كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب مقياس النيل وأدخلها في القلعة واتفق في عمارتها أموالا جمة ، وشيد فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجاً وأقام بها جامعاً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من للمسابد القديمة ، وعمد الرخام وزعمنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الفلال — والازواد خشية محاصرة الفرنج ، فانهم كانوا حينئذ في عزم أن يمتدوا بلاد مصر .

وذكر القريري أن مباني القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية وموجز القول أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا في جنوب جزيرة الروضة . وقد سكن الملك الصالح نجم الدين هذه الجزيرة مع مماليكه وكانت عدتهم ١٠٠٠ مملوك بعد أن نقلهم من قلعة الجبل . واستمرت تلك الجزيرة عامرة حتى تولى السلطنة عز الدين أيبك فأمر بتخريب القلعة ليعمر بها مدرسته المزية التي كانت برجة اللجنة بمدينة مصر واقتدى به ذوو الجاه فأتخذوا كثيراً من سقفها ونوافذها وغيرها ، ويبيع أخشابها ورخامها وأشباه جليسة .

٥ - قبة الإمام الشافعي :

لما توفي الإمام الشافعي في سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) دفن بقرية أولاد ابن عبد الحكم وفي عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) شيد السلطان صلاح الدين تربة الشافعي وبني بجوارها المدرسة الإصلاحية ، وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) فرغ من عمل التابوت الخشبي الذي يملأ تربة الشافعي وهذا التابوت صنع من خشب الساج الهندي المقسم إلى حشوات هندسية متوشة ومكتوبة عليها الآيات القرآنية وترجمة حياة الشافعي واسم الصانع الذي قام بعمله وذلك بالحيط الكوفي والنسخ الأيوبي .
ولما توفيت والدته الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعي وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الأيوبية ثم أوصل للماء إليها من بركة الحبش وكان الفراغ من إنشائها في يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١) ثم أنشأ تابوت من الخشب فوق تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعي .

وللكامل محمد هذا هو منقش دار الخديت الكاملية الجليلة في النعاسين وكان ذلك في عام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥) وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربي لسوق النعاسين وإلى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برفوق أمام منشآت الملك الصالح نجم الدين .

وتنسب إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي المدرسة الصالحية التي وضع أساسها في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢) وبدأت الدراسة فيما في العام التالي بالرغم من ضخامة بنائها وقد أقيمت على موضع القصر المظلمى الشرقى ، وأول من درس بها قاضى القضاة شمس أبو بكر .

ومثذنة المدرسة نموذج فريد للأذن الأيوبية ولها مكاتها من ناحية التطور
العماري للمثذنة .

تلك ، كانت القاهرة الأيوبية الكبرى حينما استقبلت حكم دولة للمالك الأولى
في أعقاب انتصار الأيوبيين في معركة المنصورة عام ١٢٥٠ م .

د . عبد الرحمن زكي



قلعة الجبل : ممر يؤدي الى باب العزب